"الإعجاز العلمي"
بين الإفتقار للجدوى وهشاشة الإطار المرجعي

الباحث عبد الحي طالعي
طالب بجامعة UoPeople الأمريكية

المبحث الأول: الاطمئنان بالفطرة أم الإقتناع بالدليل
المبحث الثاني: جدوى "الإعجاز العلمي"
المبحث الثالث: الإطار المرجعي المرتكز عليه
المبحث الرابع: العلم والمنطق في مواجهة الدين

مقدمة

بدأت أتأثر بمفهوم "الإعجاز العلمي" وأنا في سن المراهقة مع انتشار القنوات الفضائية الدينية، والتي لقيت نجاحا باهرا بعد أن جاء الإخوان المسلمون –وهم ملاك هذه الماكينة الإعلامية الضخمة– بكثير من البرامج التجديدية والمثيرة التي تركز على مواضيع تطوير الذات وتفسير الأحلام وقصص السيرة النبوية و"الإعجاز" طبعا.

اغرورقت عيناي بالدمع أكثر من مرة وأنا أستمع لقصص "الإعجاز" التي تسلب الأذهان وتنعش الفؤاد، إلا أنني وبعد المعاينة والنظر للواقع صدمت صدمة كبرى. وهذا يذكرني برواية (The Painted Veil) للكاتب سومرست موم، حيث استخدم موم هذا المفهوم لإظهار كيف أن كل المجتمع والناس الذين يعيشون فيه ملوثون، لكننا لا نرى هذا التلوث لأننا نضع الحجاب الملون أمام أعيننا، ولا تكشف حقيقة الأشياء إلا بعد إزالته.

لم أجد بعد إزاحة الغشاوة سوى الخراب والهشاشة في الدول الإسلامية باستثناء بعض الحالات القليلة لدول تقدمت بالفعل. وعندها تساءلت؛ ما سبب تخلف المسلمين عن باقي الأمم؟ وعن أي إعجاز يتحدثون؟ فإن أراد المسلمون بالفعل إثبات أن الإسلام هو الدين الصحيح بالعلم، فمنطقيا يجب أن يكونوا هم أصحاب الريادة فيه، لا أن ينتظروا اكتشافات الأمم كي يستعينوا بها لإعجازهم، وهذا هو "الإعجاز" الوحيد الذي يمكن لي الإيمان به. كأني بالإعجازيين إذن كمن يفرح بسقوط المطر على غسيل جاره.

كلما استغرب أحدهم من هذا التناقض إلا وجد من يهمس في اذنه ويقول: "المسلمون لا يمثلون الإسلام الحقيقي لذلك هم فاشلون"، وأنا أتساءل ما هو هذا الإسلام الحقيقي وأين نجده؟ فإن كان المسلمون لا يمثلون الإسلام فهل هذا يعني أن الإسلام دين غير قابل للتطبيق عمليا لأنه يطلب من البشر ما لا طاقة لهم على تحمله ولهذا لا يلتزمون فيعاقبون بالفقر والحروب؟ وهذا لا يمكن لأن الله تعالى يقول:

{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}. [1]

إذن فالإسلام دين قابل للتطبيق على البشر وبالتالي فالمسلمون الموجودون على هذه الأرض ممثلون له وإلا أين المسلمون إذن؟

كنت أعمل قبل عدة سنوات كموصل طلبيات في مطعم بلندن، وكان يعمل معي طباخ في الخمسينات من عمره قدم من باكستان. في أحد الأيام وبسبب قلة الطلبيات جلسنا نحتسي الشاي ونتحدث تلقائيا، وبعد برهة أخذت في قراءة آية الكرسي التي كانت منقوشة على لوح معلق في صدر المطعم، فقال الباكستاني؛ "ما شاء الله، كم أتمنى قراءة القرآن بالعربية، اللغة التي نزل بها".

لا بد أن أول شيئ فكر فيه البعض هو الإنتصار العظيم للإسلام على الإنجليز لأن آية الكرسي معلقة في مطعم في قلب لندن، وهؤلاء أحد أسباب اتصام المسلمين بالفشل، وهم لم يفكروا في الإنتصار العظيم للإنجليز بجعلهم اللغة الانجليزية هي ثاني أهم لغة في باكستان بدل أن تكون العربية، أما أنا ففكرت بنعم الله تعالى. يقول عز وجل:

{وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [2].

بالفعل، فقد كانت تلك هي أول مرة أدرك فيها أن المسلمين غير العرب يتمنون قراءة النسخة العربية للقرآن الكريم، الشيئ الذي طالما اعتبرته عاديا. وقد استغربت من صرف العرب لكل هذه الأموال على "الإعجاز" الذي سنرى أن لا جدوى تذكر منه، وعدم الاهتمام الكافي بتعليم اللغة العربية في الدول الإسلامية غير الناطقة بها، خلافا للأزمنة الماضية حيث" اندفع العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام وتعاليمه السمحة في أقطار الأرض، ففتحوا العراق وإيران وخراسان والشام ومصر وبلاد المغرب...فساعد ذلك على تعريب هذين القطرين سريعا، وأخذت تتعرب الأقطار الأخرى التي لم يكن لها عهد بالعروبة من قبل. ومن حينئذ لم يعد اللسان العربي خاصا بأبناء الجزيرة العربية وحدهم، فقد أخذ يشيع في شعوب قريبة وبعيدة، وسرعان ما تعربت"[3] (3).

بدأت عندها بالاهتمام بموضوع الإعجاز كباحث وليس كمستهلك للمنتوجات الإعجازية فقط، أي أنني بدأت في التساؤل عن سبب الاهتمام البالغ بهذا الوضوع بدل ما هو أهم، فقرأت أبرز ما كتب عنه ليكون هذا البحث.

نبذة عن تاريخ "الإعجاز"

وبالرجوع للتاريخ، نجد أن هناك إجماعا على أن أول ظهور لمفهوم "الإعجاز" كان في المعتزلة بعد أن جاء أبو إسحاق النظام بالإعجاز بالصرفة. قال تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}. [4]

وهذا يعني أن الله صرف العرب عن الإتيان بمثل القرآن الكريم بإرادته وليس لأنهم لا يقدرون على ذلك، وقد تم الرد على هذا القول بإنكاره بيد أنه يخفي تلميحا لاضطرار الله تعالى للصرفة لما لم يقدر على مقارعة العرب في الفصاحة.

يؤول "الإعجاز بالصرفة" لتأثر المسلمين بفلسفة الشرق والغرب والاختراق الفكري الذي تعرضت له الدولة العباسية –وهي في عزها– خلال فترة حكم أبي جعفر المنصور ومن تلاه. فالإعجاز بالصرفة وجد في فلسفة الهندوس وارتبط بأشعار كتاب الفيدا، والهندوس يظنون أنه تم صرفهم عن الإتيان بمثل تلك الأشعار من قبل براهما. وترجمت كتب الفلسفة الهندوسية في زمن الخلافة العباسية، فتأثر المسلمون بها وطبقوها على القرآن الكريم، وهكذا ظهرت الصرفة.

ومن عوامل ظهور وانتشار أفكار الهند واليونان بين مسلمي الدولة العباسية إسلام الفلاسفة والمفكرين النصارى وتعلمهم للعربية والكتابة بها، أما ظواهرها ففي التغيير الذي لمسه الملاحظون حينها؛ "إن طبيبا عربيا مسلما يدعى أسد بن جاني كسدت حاله مرة فقال له قائل: 'السنة وبيئة –أي كثيرة الأوبئة– والأمراض فاشية، وأنت عالم، ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة، فمن أين يأتيك الكساد؟' قال: 'أما واحدة فإني عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب، بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون في الطب، واسمي أسد، وكان ينبغي أن يكون اسمي صليبًا أو يوحنا، وكنيتي أبو الحارث، وكان ينبغي أن يكون: أبو عيسى، أو أبو زكريا، أو أبو ابراهيم، وعليّ رداء قطن أبيض، وكان ينبغي أن يكون علي رداء حرير أسود' " [5] . وهذا مما يعتمد عليه من يعتقدون أن "الإعجاز بالصرفة" من مظاهر اختراق المسلمين فكريا.

واعتقد المعتزلة أن القرآن كتاب وكلام مخلوق، بالتالي فإنه بكونه مخلوقا فلا فرق بينه وباقي المخلوقات، ومنها الكلام، أي لا فرق بين كلام وكلام. وقال المعتزلة كذلك أن لا إعجاز في نظم القرآن بل الإعجاز في صرف الناس عن الإتيان بسورة من مثله رغم مقدرتهم عليها. هذا، وأما من يؤمنون بأن كل مصائب الأمة سببها اليهود فنسبوا "الإعجاز بالصرفة" ليهودي يدعى لبيد ابن الاعصم.

أنكر الخطابي –توفي سنة 388هـ– الإعجاز بالصرفة بشكل واضح خلافا لسلفه الجاحظ الذي تلطف في الإنكار احتراما لأستاذه النظام. وقال الخطابي أن إعجاز القرآن يكمن في فخامته وعذوبته، ولأنه جاء بأحسن ما يمكن اختياره من الألفاظ التي تحوي أحسن المعاني، وهذا ما يطلق عليه "الإعجاز البلاغي" اليوم. كذلك قال الخطابي أن إعجاز القرآن موجود في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكونه جامعا لمكارم الأخلاق بشكل يعجز عنه البشر، "فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما أو منشورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، وفي الروعة والمهابة في أخرى". [6] (3).

يعتبر الباقلاني –توفي سنة 403هـ– أول من كتب كتابا مستقلا خاصا بالإعجاز، وهو كتاب (إعجاز القرآن). واعتبر الباقلاني أن القرآن له امتياز يميز به عن باقي الكتب المنزلة، حيث أنه دال على نفسه بخلاف باقي الكتب، لأن نظم هذه الأخيرة غير معجز. "وإذا تأملت على ما هديناك إليه، ووقفناك عليه، فانظر: هل ترى وقع هذا النور في قلبك، واشتماله على لبك ، وسريانه في حسك، ونفوذه في عروقك، وامتلاءك به إيقاناً، وإحاطة واهتداءك به إيماناً وبصيرة؟" [7]

وقد عرف عن الباقلاني رده على من قال بوجود السجع في القرآن الكريم. وهناك من أخذ على الباقلاني عدم تقديمه حججا وأدلة رصينة ودامغة لدعم ما يقول، بل إن ما قاله يقبل النقاش والرد.

تبين لي من خلال الملاحظة أن الإعجاز يرتبط أساسا بالمستجدات والتغييرات التي يتأثر بها العرب. قد كان العرب مهووسين بالشعر والفصاحة زمن النبوة، وجعلهم هذا ينبهرون بالقرآن الذي جاء به النبي الأمي –إلا أنهم لم يخوضوا في "الإعجاز" بل خاض فيه من خلفهم– بعدها تأثر المسلمون بالفلسفة فظهر علم الكلام، وبما أننا اليوم في عصر العلم فمن البديهي أن نجد ما يسمى "الإعجاز العلمي" وقد ظهر على كل مشتقات "الإعجاز" الأخرى.

الإطمئنان بالفطرة أم الإقتناع بالدليل

لا يستقيم للإنسان العيش دون اطمئنان، فإما سلامة الفكر والقلب بالإيمان المطلق والفطري وهذا ما يقود نحو التقدم والاستمرار، وإما تلوثهما بعدوى اتباع التحليل وإدمان جرعات الإقناع وهذا ما يعرقل أي مسيرة نحو التقدم، إن على مستوى الفرد أو المجتمع.

وقد قلل بعض العلماء في تحليلاتهم من شأن الاطمئنان، وجلهم المتكلمون، و ركزوا على الاقتناع وخاضوا في المعارف بحثا عن اللذة التي تصاحب الاقتناع. ما تلبث تلك اللذة أن تنقطع فننتظر بانقطاعها مرغمين حتى يكتشف أحدهم "إعجازا" جديدا. وليس بالإمكان تحديد ما إذا كانت هذه الإكتشافات بذاتها تتضمن حلاوة ما أو لذة يتمتع بها المستهلكون والصناع على حد سواء، أم أن هذه اللذة هي فقط لتناسي مرارة الشك ذي الطعم العلقمي.

قبل المبشرين والمنذرين كان الإنسان إذا ما عجز عن فهم شيئ ليس له سوى تفسيره بنفسه، فإن كنت أنت الآن تسعد بمنظر النجوم في السماء فلأنك تؤمن أن الله هو من خلقها وقلبك مطمئن بهذا الإيمان. الإنسان القديم لم يكن يدرك هذا بل كان يشعر بالخوف، وخوفه لم يكن من السماء بحد ذاتها بل من عدم فهمه لماهيتها.

يدعم هذا القول أن الإنسان كائن يخاف من من كل شيء، ولا يسقط هذا الخوف إلا بتوفر الفهم وكذا سبل الدفاع ضد ما نخاف منه. إنه لشيئ بديهي أن يخاف الإنسان البدائي من الوحوش، وقد تولد هذا الخوف بعد تعرضه للإفتراس، وبعد فهم الإنسان لسلوك هذه الوحوش وتطويره لأساليب ووسائل لصدها أصبح هذا الخوف مؤطرا، بل صرنا نضع أيدينا على هذه الحيوانات ونسجنها في اقفاص ونستمتع بإحساس الغطرسة والسادية.

الإنسان القديم لم يفهم العلة في إرسال السماء للغيث الذي ينفعه ثارة وللأمطار العاصفية التي تهلكه ثارة أخرى، فما كان منه إلا أن ربط الأمر بقوة غامضة إن رضيت جادت عليه وإن غضبت عاقبته. وهذا تحليل بسيط يكتنف اللبس والإنحياز للنظرية العلمية إذا لم ينقح ويلقح بما يقوله الدين. ويستند العلم على ما ذكر لإثبات أن الدين صناعة بشرية.

"الخيال هو الملكة التي تنتج الدين والأساطير...لقد مكننا خيال العلماء من السفر عبر الفضاء الخارجي والمشي على القمر، وهي بطولات ما كانت ممكنة إلا في عالم الأساطير فقط" (1). [8]ما تريد الكاتبة قوله هو أن معجزة الإسراء والمعراج مثلا ما هي إلا خرافة، وبالمقابل مشي لويس ارمسترونغ على القمر سنة 1969 هو حقيقة أوصلنا لها التقدم العلمي.

وهذا ما يفرقنا عن الإنسان القديم كما يظن ويؤمن الكثيرون اليوم. فالحاجة للدين قد انتهت في هذا الزمن بالنسبة لهم لأن العلم يقدم تفسيرات لكل ما لم نكن نستطيع فهمه سابقا؛ فيقولون لما الدين إذن؟ ونرد لنقول أنه قد يكون "من الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والجسدية، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى...سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي" . [9]

كذلك يعد العلم الناس بتقديم تفسير لكل الغموض الذي لا زلنا نحسه ونعيشه، فبينما أنا جالس يوما بمفردي أكتب، إذ بباب الخزانة يفتح من تلقاء نفسه، لجأت للعلم فلم أجد تفسيرات مقنعة، وهذا ما يجعل الديانات تقاوم الإندثار في زمن العلم، فنحن نلجأ للخوارق كما لجأ إليها من نصفهم بالبدائيين.

قيل للناس أن محمدا ذهب للسماء وعاد فصدقوه رغم أن أحدا لم يكن شاهدا على ما حدث، وكذلك قيل لهم أن ارمسترونغ ذهب للقمر وعاد وصدقوه رغم أن أحدا لم يكن شاهدا على ما حدث، وأنا هنا لا أروج لنظرية المؤامرة بل اريد توضيح الفرق بين الإيمان وبين الاقتناع.

وتوضيح هذا الفرق هو أحد أهم مطالب هذا البحث، والوصول لتبيان الفرق بين الاثنين، بل حتى الأصوب بينهما، لا يتطلب النظر إلى الوثائق والكتب فحسب، ولا الرجوع لظروف الكتابة والنشر التي عانى منها الكتاب عبر تاريخ الإسلام، ولا للغايات التي لا تسموا أحيانا وتزل بقلم الكاتب نحو الخطيئة، بل لكل هذه الأسباب مجتمعة.

إن اردنا الإعتماد على الكتب التاريخية للوصول للحقيقة ومعرفة كيفية تعامل القدماء مع مسألة الإيمان فهناك عديد المخطوطات والمؤلفات الإسلامية والتاريخية التي تعطي أفكارا متعددة عن الموضوع، إلا أن الكتاب، وعبر تاريخهم، لم تتوفر لهم الحرية والنزاهة بقد ما توفر لهم الورق أو جلود الحيوانات.

والكاتب قد يضطر لكتمان أفكار يريد البوح بها للقراء أو لكتابة أفكار أخرى لا تناسب رؤيته للموضوعات بقدر ما تناسب الظروف السياسية والإقتصادية التي يخضع لها، بل احيانا للنجاة من السجن والموت او تملقا للحاكم طمعا في العطايا.

فكتاب الدولة العباسية لا يمكن إنكار أنهم خلطوا الدين بالفلسفة تماشيا مع توجه أبي جعفر المنصور الذي أمر بترجمة كتب فلاسفة الهند واليونان، "وإذا انتقلنا إلى العصر العباسي وجدنا النظم الساسانية تنتقل بحذافيرها في كل شؤون الحكم، وكأنما أصبح الخليفة العباسي ملكا ساسانيا، فهو يحكم حكما مطلقا وهو حكم ينتقل بالوراثة ويطبعه الدين كما كان يطبع الحكم الساساني، إذ كان الساسانيون يعدون أنفسهم رؤساء للدين وحماة له وحراسا. وكان العباسيون من بيت النبوة، فكانوا يعدون أنفسهم ورثة الخلافة الشرعيين، واتخذوا من علماء الفقه والكلام سندا لهم فيما يزعمون" (3). [10]كما لا يمكن إنكار أن هروب الكواكبي مثلا من العثمانيين لمصر بعد أن عانى من تضييقهم كان له دور ولو بسيط في إطلاق اسم (طبائع الاستبداد) على كتابه الشهير.

فإن كانت كتابة الناس للكتب حقيقة تاريخية، فتلوث هذه الكتب بالخوف والتدليس والحقد كذلك حقيقة يجب تصديقها. وينقسم كتاب التاريخ إلى قسمين؛ قسم يكتب عن الزمن الذي يعيش فيه، وهذا له امتياز المعاينة والدقة وله علة التدليس مرغما كان أم عامدا، وقسم يكتب عن زمن آخر غير الذي يعيش فيه، وهذا له امتياز الحرية –رغم أن مفهومنا للحرية اليوم قد ينظر له كنوع من الاستبداد بعين المستقبل أو الماضي– وله علة عدم القدرة على إحساس الشعور الذي ساد الزمن الذي يكتب عنه.

تتوفر كتب الفلاسفة المسلمين القدماء والمعاصرين، إلا أن الكتب التي تحاكي القرن الأول الهجري لا وجود لها، اللهم تلك التي كتبت في أزمنة أخرى فينطبق عليها ما ينطبق على غيرها. منذ القرن الثاني الهجري بدأ المسلمون بالتدوين وظهرت الكتب والمؤلفات والمجلدات،" 'قال الذهبي: في سنة ثلاث وأربعين (ومائة) شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير... ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس. وقبل هذا العصر كان الناس يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة.' "[11]

والمفهوم من هذا الكلام هو الحاجة للتدوين خوفا من ضياع العلم بعد موت من يحفظونه، لكننا "سنلاحظ أن ما حدث في 'عصر التدوين' –بغض النظر ههنا عن حدوده الزمنية– لم يكن عملية تسجيل ولا عملية تفريغ وتظهير، بل عملية إنتاج وبناء وتنظيم للثقافة العربية الإسلامية... والحال أن كل ما يمكن أن يدل عليه تعبير 'عصر التدوين' هو أن ثقافة بعينها –هي هنا الثقافة العربية الإسلامية– قد انتقلت في ذلك العصر من طور شفاهي الى طور كتابي. والحال ايضا أننا بدون أن ننكر أن شيئا من هذا القبيل قد حدث، فإننا نوثر أن نتحدث عن إنتاج وإعادة إنتاج ثقافي. . . وهذا بحيث لو كان لنا الخيار لتحدثنا بدلا من 'عصر تدوين'، عن عصر تكوين للعقل العربي." [12]

فاكتفاء الخلفاء الأوائل بجمع القرآن لم يكن تقصيرا منهم، بل لعلمهم والتزامهم أنه لا يجوز فرض تفسير معين لآيات الله على المسلمين والناس. وهذا من ناحية ما يدعم ما اقول؛ حيث أن الإيمان يكون بالاطمئنان وليس بالاقتناع، ومحاولة فرض التفسيرات على الناس بحد ذاتها محاولة لإقناعهم.

فإن كان الناس صدقوا بذهاب ارمسترونغ للقمر فلأنهم اقتنعوا بعد أن شاهدوا الفيديوهات ورأوا الصور واستمعوا للتسجيلات الصوتية، أما رعاة الإبل البسطاء في الجزيرة العربية قبل مئات السنين فصدقوا محمدا لأنهم آمنوا.

"الأسطورة تكون حول المجهول. إنها مسألة تتعلق بما لا نملك له كلمات في البداية." والكاتبة تعني أن جميع الديانات والمعتقدات ما هي إلا خرافة من ابتداع البشر عبر التاريخ لتفسير الظواهر التي كانت بعيدة عن الفهم. فلما جاء النبي محمد ببعض القصص في القرآن قال له الناس أنها أساطير الاولين، كالإسراء والمعراج وسفينة نوح وحوت يونس، وقالوا أن محمدا أحضرها من ثقافات أخرى وادعى أنها وحي.

وهناك من ادعى أن محمدا انتقم من اليهود لرفضهم الإعتراف به كنبي لدين سماوي جديد بأن حشى القرآن الكريم بعشرات السور والآيات التي تدعوا لقتالهم. لأن اعتراف اليهود والنصارى بمحمد نبيا يوحى اليه يعني تلقائيا نسخ ونسف دينهم."...الدين هو اليهودية والنصرانية والإسلام وسائر الأديان التي تبث أصلها السماوي، على اعتبار نسخ اللاحق من الشرائع للسابق، فلا يعتد إلا بآخرها نزولا فيما يخص التعريفات والمضامين التشريعية والتفصيلات العقدية المضافة."[13]

ملحمة جلجامش هي قصيدة ملحمية من بلاد ما بين النهرين القديمة والتي تعتبر أقدم عمل أدبي للإنسان حيث يرجع تاريخها إلى الأسرة الثالثة في أور حوالي سنة 2100 قبل الميلاد. كتبت قصص الملحمة على ألواح من الطين، وعلى إحدى الألواح وجدت قصة الطوفان العظيم. قمت بترجمة هذه القصة: " 'كانت المساحة الأرضية عبارة عن فدان واحد، وكان طول كل جانب من جوانب ظهر السفينة مائة وعشرون ذراعًا، مشكلة بذلك مربعًا. لقد بَنيت ستة طوابق أدناه، سبعة إجمالا، قسمتها إلى تسعة أقسام مع حواجز بينها . . . لمدة ستة أيام وست ليال طغت الريح والعاصفة والفيضان على العالم. . . عندما بزغ اليوم السابع خَفَّت عاصفة الجنوب، صار البحر هادئا والفيضان كان قد استقر. نظرت إلى وجه العالم وكان هناك صمت، تحولت البشرية كلها إلى طين.' "[14]

هذا مثال على وجود قصص القرآن بالفعل في ثقافات أخرى قبل آلاف السنين، ووجدت لسبب بسيط؛ وهو أنها حدثت بالفعل مع أنبياء ورسل بعثهم الله للناس قبل محمد. فعدم فهم الناس للإسلام هو ما يوصلهم لهذه التحليلات الخاطئة، فالإسلام لم يبدأ بقدوم محمد، بل هو الدين الذي اختاره الله للناس مذ خلقهم.

قال تعالى: {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}. [15]

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنه قال: "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا اوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون انصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت."

وقال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}. [16]

ونستشف أن بداية الشرك في بني آدم كانت في قوم نوح، وقبل هذا كانوا على الإسلام. فالشرك وعبادة غير الله لم تكن في البشر منذ وجودهم كما يصور لنا علم الاهوت والأنتروبولوجيا، بل كانوا على الاسلام قبل أن يستدرجهم الشيطان، كما أن القصص الضاربة في التاريخ لم يأت بها الناس من خيالهم بل هي معجزات أنبياء الله التي تم تحريفها بعد أن ظهر الشرك في الناس.

قال تعالى: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40)}. [17]

العلم لا يؤمن بشيء اسمه الشيطان، فمن أهم مراحل استراتيجية إغواء الشيطان للإنسان هي هذه المرحلة التي نجح فيها بجعل الناس يظنون أنه مجرد مبدأ يمثل الجانب الشرير من الإنسان. يقول بول كاروس: "الشرير (الشيطان) لعب دورا هاما في خيال الناس في زمن المسيح. . . . تبع يسوع الاعتقاد الشائع في ذلك الوقت في عزو الأمراض العقلية إلى تلبس الشياطين." [18] واستنادا على هذا التحليل قال البعض أنه لكي ينهى محمد قومه عن تبدير الطعام أمرهم بأن يغطوه كي لا يأكل الشيطان منه، ولينهاهم عن العنصرية أمرهم بعدم ترك فراغ بين أقدامهم وهم يصلون كي لا يقف الشيطان فيه، إلى ما هناك من هذه المزاعم. وهذا ما أدى لاختزال الإسلام في فكرة فلسفية وجعل محمد مجرد فيلسوف ينطق بالحكمة والموعظة.

لأن كل جيل جديد يقوم بتسفيه الجيل الذي سبقه. فعندما نذهب للمتحف ونتمعن التحف الأثرية والقديمة نحس بالإنبهار من مدى اختلاف اسلوب حياتنا عن طريقة عيش الإنسان القديم، لكن هذا الإحساس ليس كل ما نشعر به، بل إننا نقوم في أعماقنا باحتقار هذا الإنسان البدائي ونظن أننا اذكى منه.

جاء التفنيديون وأشهرهم أحمد ديدات واعتمدوا استراتيجية البحث عن التناقضات ومكامن الخلل في الإنجيل والدين المسيحي لهز عقيدة جموع المسيحيين، وبعدها يتم تقديم الإسلام كبديل لهؤلاء. كان الأمر ناجحا بسبب الثورة في الإعلام التي مكنت العالم بأسره من المشاهدة والإستماع، وكذلك لأن أغلب من اهتموا بمناظرات ديدات كانوا إما من القساوسة الذين لا إلمام لهم بالدين الإسلامي –ولهذا أفحمهم ديدات لتمكنه من الديانتين، وإما من المسيحيين الذين قد اهتزت عقيدتهم بعد أن أضعف دين العلم مصداقية ما يؤمنون به من معجزات، وبالطبع أساس الديانات السماوية هو المعجزات. "وتطلق هذه التسمية (الأديان السماوية) على الأديان التي يؤمن معتنقوها أنها منزلة من عند الله؛ أي أن مصدرها هو الوحي الإلهي، وتستخدم هذه التسمية في مقابل (الأديان الوضعية) التي كانت من إنتاج البشر، دون الاعتقاد في أن مصدرها هو الوحي"[19] بعد مرور السنين وانتصار العلم والمنطق في المجتمعات الغربية لم تعد المعركة بين الإسلام والمسيحية، بل بين الإسلام والعلم الذي دمر أسس كل الديانات ووحد الثقافات.

العولمة والنظام العالمي الجديد مفاهيم بسيطة للغاية. ما عليك سوى دراسة الدستور الامريكي لتفهم ما الذي يحدث، لأن كل مظاهر النظام العالمي الجديد مخالفة للدستور الامريكي. الأمر يتعلق بالشركات المتعددة الجنسية والأبناك التي سيطرت على الحكومات بعد أن مرغت أنفها في الديون وبالتالي كان المجال مفتوحا دون مقاومة هذه الحكومات لخلق مواطن عالمي يعشق الاستهلاك دون طرح الأسئلة. فعيد ميلاد المسيح لم يعد مناسبة دينية بل موسم تسوق، وكذلك صار المسلمون يقترضون المال لشراء كبش عيد الأضحى.

تأقلم الإعجازيون مع ما يحصل من تغيير وقدموا باستراتيجية جديدة لتحويل العدو إلى حليف، "وهذه الخبرة وذلك التمرس يعتمدان أساسا على تحصيل كفاية من العلم في تفسير القرآن الكريم وعلوم الشريعة، ووجود قاعدة راسخة من التمكن في العلوم الكونية." [20] وبدل اعتماد التفنيد أصبحوا يعتمدون الإقناع، وذلك بالبحث عن أي تطابق بين ما يكتشفه العلم أو ما هو منطقي من جهة وبين ما ذكر في القرآن قبل مئات السنين، وهذا هو أساس مفهوم "الإعجاز العلمي".

بعد تذوق الناس حلاوة أن يتطابق ما في العلم مع ما في القرآن والسنة –نسبيا، كذلك أخذ البعض في محاولة مطابقة ما في القرآن والسنة مع ما يأتي به العلم كل يوم، لأن "في دائرة الدين ننطلق من المسلمات لنصل إلى ترسيخ المعتقد. . . أما في دائرة الفكر فننطلق من الأجوبة لنحولها إلى أسئلة جديدة كما سبق أن المحنا اليه. في الدين نسعى الى ثبات الإيمان. . . وأما في الفكر فنسعى إلى المساءلة النقدية الدائمة، ذلك أن الفكر متمرد بطبعه على القناعات المستقرة"[21].

وهنا مكمن الخلل في هذا الأسلوب. وكما جعل التفنيديون المسيحيين يشكون في دينهم، دفع الإعجازيون بالمسلمين أنفسهم نحو الشك، ومنهم من ترك الإسلام واعتنق دين العلم. وبدين العلم لا أعني تجرد الإنسان من المعتقد، بل دين العلم هذا بحد ذاته نظام اعتقادي.

الإنسان لا يطيق الظن والشك، وهو أبدا فقير لنظام اعتقادي يوفر تفسيرات للظواهر، وبالتالي يوفر اليقين الذي لا محيد عنه للنجاة. فعندما يتآكل معتقد ما ويندثر فليحل محله معتقد آخر.

قارن التفنيديون بين الإسلام والمسيحية وهما لا يتغيران، بينما قارن الإعجازيون بين ما هو ثابت –القرآن والسنة– وبين ما يتغير كل يوم –العلم، و المقارنة بين الثابت والمتغير بحد ذاتها تدل على خطل بالتفكير سنتعرف على مسبباته.

جدوى "الإعجاز العلمي"

من المعروف أنه وقبل تنفيذ أي مشروع يجب عمل دراسة للجدوى. وإن كانت "دراسة الجدوى لمشروع ما تتكون من عدة مراحل وخطوات متخصصة مترابطة ومتداخلة ومتتابعة ونتائج كل مرحلة تمثل مدخلات للمرحلة التي تليها وفي نهاية كل مرحلة يتم اتخاذ قرار إما بالانتقال إلى المرحلة التالية، أو التوقف." [22] فإن دراسة جدوى الإعجاز العلمي كذلك يجب أن تخضع لظوابط محددة، غير أنني لم أجد جدوى تذكر لهذا "العلم"، وهذا ما سأبينه لاحقا. فما هي جدوى "الإعجاز العلمي"؟ هل "الإعجاز العلمي" وسيلة للدعوة –ولهذا يتم ترويجه في المجتمعات غير المسلمة؟ أم أن "الإعجاز العلمي" وسيلة يثبت بها المسلمون لأنفسهم أنهم على الدين الصحيح –ولهذا يتم ترويجه في المجتمعات المسلمة أصلا؟

لنبدأ بالفرضية الأولى لجدوى "الإعجاز": "..وحيث إن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وسيلة من وسائل الدعوة القوية والمؤثرة في هذا العصر، وأسلوب أخاذ من أساليب التبليغ والبيان لدين الله عز وجل. لذا فقد أصبح أمرا مهما جديرا بالدراسة والبحث." [23] . ويضيف المصلح: "الابتعاد عن تسفيه آراء السلف من علماء التفسير والحديث ورميهم بالجهل..." . واستشهد بالآية التالية:

{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}.[24]

تقول الآية: {الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} ولا تقول سبقونا باستخراج ضوابط الإعجاز العلمي. لأن الأولين –وهم أعلم الناس بالدين– ما تركوا الخوض في هذه الشبهات إلا لعلمهم أن الإيمان يترسخ بالاطمئنان وليس بالاقتناع، عكس ما تم ترويجه من طرف الأشاعرة وغيرهم من أن الأولين كانوا أقل ذكاء منا. فمن يُسلم بالاطمئنان لا يعود للشك أبدا، فالإيمان هو إيمان الفطرة وليس إيمان الآلة الحاسبة. وقد روي عن عمر رضي الله عنه انه دعى بأن يرزق إيمان العجائز، أي إيمان الناس البسطاء الذين ملئت قلوبهم باليقين ولا حاجة لهم للاقتناع بالوسائل المنطقية.

عزيزي القارئ، هل تؤمن بأن تشارك الطعام بين المسلمين يزيد فيه البركة التي ينزلها الله فيه، أم أنك تؤمن أن الفرد يحتاج عددا معينا من السعرات الحرارية وقدرا مدروسا من البروتين والفيتامينات..؟

الثقافة الغربية في العصر الحديث مبنية على الفردانية (individualism)، وبالثقافة الغربية أعني الحلم الأمريكي. يقول جاريد روزنبرغ، جامعة موراي ستانت، أن "عندما يعمل كل شخص بغية تحقيق إنجازات شخصية ومكاسب اقتصادية لنفسه، عندها يظهر مجتمع دافعه هو الإختيار الشخصي بدل اختيارات الجماعة ككل". وخلافا لنهج الحلم الأمريكي، فالإسلام دين تلاحم بين أفراده الذين يعتقدون بنفس العقيدة ولا مكان فيه للفردانية. وقد جعل هذا التلاحم البعض يصفه بالدين الشمولي أو الجماعي من الجماعية (collectivism)، وهناك من شبهه بالفاشية (fascism).

أدرك الإعجازيون هذا الإختلاف بين الثقافات الأخرى –والتركيز على الغرب– وبيننا، أي بين نهج الفردانية وهو الإختيار وبين نهج اللحمة وهو العقيدة المشتركة والموحدة. فامتناع المسلم عن شرب الخمر لا يمكن اعتباره اختيارا شخصيا حتى لو كان هذا المسلم يكره طعمه ورائحته. وهكذا جاءوا بما ظنوا أنه أسلوب جديد للفتح الإسلامي (الفتح الإسلامي الفرداني)، وذلك بمحاولة التركيز على كل فرد على حدى وبالاتكال على العلم والمنطق الذي يؤمن به المستهدفون.

الفتوحات الإسلامية على مدار التاريخ الإسلامي تكون على شكل جماعي، كأن يأتي الناس أفواجا أو على شكل بعثات تمثل القبائل، وكان إسلام البعثة يعني إسلام القبيلة جمعاء، وبذلك تجب عليها الزكاة والدفع بالرجال للجيش. وقد ذكرت قصة إسلام قبائل البربر؛ "أنه لما فتحت مصر وكان

عليها عمرو بن العاص قدم عليه ستة نفر من البربر محلقين الرؤس واللحى، فقال لهم عمرو: من أنتم و ما الذي جاء بكم؟ قالوا: رغبنا في الإسلام فجئنا له لأن أجدادنا قد أوصونا بذلك." [25] وأسلوب الفردانية هذا الذي يستعمل المنطق ارتد على الشعوب المسلمة ايضا، فصار المسلمون يبحثون عما يقنعهم بشكل شخصي بصحة دينهم الذي كانوا قد ورثوه بشكل فطري دون تساؤلات. وهكذا ازداد تمزق الأمة الإسلامية بسبب طيش المتحمسين.

الفرضية الأولى لجدوى الإعجاز العلمي كأسلوب جديد للدعوة قد فشلت، لأنها كما ذكرت تعتمد مقارنة الثابت بالمتغير وتعتمد أدلة علمية قد تتغير بتقدم العلم. وهي كذلك مبنية على الدعوة بإقناع العقل بدل طمئنت القلب، وهذا تم الرد عليه.

مرورا إلى الفرضية الثانية لجدوى الإعجاز، وهي إما انتشار وإما نَشر النظرية بين من هم أصلا مسلمون كدليل على أننا على الدين الصحيح؛ لنبدأ أولا باحتمال أن يكون الإعجاز العلمي قد انتشر، أي كمظهر من مظاهر الثقافة السائدة (Popular Culture)، ولن أتوسع في المفهوم بل سأركز على الإفلاتية (Escapism).

صك الفريد ادلير مفهوم عقدة الدونية (Inferiority complex)، وهو مصطلح يعني القيام بتعويض الدونية التي يحسها الشخص –أي أن يحس أنه أقل قيمة من الآخرين– بالقيام بما يجعله يبدو أعلى شأنا. كذلك، وحسب ادلير، فإن هذا النقص يتولد عند مقارنة الشخص لنفسه بالآخرين أو عند مقارنة الناس له بالآخرين، كأن يتم مقارنة طفل بابن الجيران الذي يدرس بشكل أفضل. و هذه العقدة قد تؤدي إلى المبالغة في التعويض عن النقص. وكمثال؛ قد يقوم شخص قصير القامة بتنحيف نفسه بقسوة حتى يبدو أطول قامة.

أما بالنسبة لموضوعنا؛ فالأمر يتعلق بأن يقارن المسلم العربي بين بلده وبلدان أوروبا المتقدمة، أو أن يقارن المسلم الأمريكي بين وضعه ووضع بقية مكونات الشعب الأمريكي كاليهود مثلا. قام ادلير كذلك بصك مفهوم عقدة الرفعة (superiority complex)، وهو آلية دفاع يقوم من خلالها الإنسان بتوليد إحساس الرفعة لديه للجم إحساسه بالدونية. وبعد أن أحس المسلمون بالدونية العلمية بعد خروج الإستعمار ونهاية الإنتداب –أي أن المجتمعات الغربية تفوقنا في هذا المجال– تولدت الرفعة الدينية كآلية دفاع –أي أن الإسلام هو الدين الصحيح و أن كل من يتفوق علينا ما هم إلا ضالون. وانتشرت بذلك نظرية "الإعجاز" بين المسلمين بعد أن وجدت لنفسها مكانا وقابلية.

وبالعودة الى الإفلاتية (Escapism)، "من ناحية، هناك فن إيجابي, الذي يقبل الوضع الحالي. . . . من ناحية أخرى، هناك محاولات للمقاومة، ولكن بما أنه ليس لهم جذور في العالم الحقيقي، فإن العباقرة أنفسهم مجبرون على الإفلاتية؛ يغلقون أنفسهم في عوالم مكتفية ذاتيا من المواد الفنية الخاصة بهم." [26]

وأنا هنا لا أتحدث عن استراتيجية الإلهاء التي تدخل في دائرة فرض نمط عيش ما على المجتمع من طرف الحكومات والنخب والجماعات المتحكمة، بل أتحدث عن الإفلاتية كخيار شخصي أو جماهيري للهروب من ضنك الواقع المر الذي يتسم بعدم القدرة على تحقيق الأحلام الشخصية أو الجماعية. فاستراتيجية الإلهاء "عنصر اساسي لتحقيق الرقابة على المجتمع، عبر تحويل انتباه الرأي العام عن القضايا العامة والتغيرات التي تقررها النخب السياسية والاقتصادية، مع إغراق الجمهور بوابل متواصل من وسائل الترفيه".[27]

وتعني الإفلاتية، ببساطة، التهرب من كل ما يزعج الشخص في حياته اليومية، وذلك بالالتهاء بمختلف مظاهر ومكونات الثقافة السائدة (Popular Culture)، كالتلفاز ووسائل التواصل الاجتماعي وألعاب الفيديو وغيرها.

ولا يقتصر هذا على تشتيت الفكر وإلهائه عن إدراك فشل الفرد في بلوغ رغباته وأحلامه الخاصة، بل كذلك على ما يمس الوضع العام لمجتمع ما؛ بحيث يتم اللجوء للإفلاتية لتناسي الحزن والإحباط العام.

الإعجاز العلمي هنا، بالنسبة لمن هم مسلمون، يعد مخدرا يوازن بين ما يريده المسلم –رغبته في العز والنصر– وبين وضع المسلم الحقيقي –التخلف. وهذا ينطبق على المسلم في كلتا حالتيه؛ إن كان في بلد إسلامي أو ضمن أقلية. ويمكن الإشارة هنا إلى أن عقدة الدونية وعقدة الرفعة قد أسهمتا في انتشار نظرية المؤامرة (conspiracy theory) في الدول الإسلامية –حيث يعزوا المسلمون كأكثرية تخلفهم للحرب التي يشنها عليهم الكل، وانتشار عقلية الضحية (victim mentality) في الأقليات المسلمة –حيث يرجئ المسلمون كأقلية تخلفهم لتعرضهم للتهميش.

ثانيا، احتمال أن يكون الإعجاز العلمي قد نُشر؛ وهنا نحن أمام فرضية استخدامه تجاريا للكسب بعد أن فطن بعض الإعلاميين والكتاب لمدى انبهار العامة بمستجداته، أو أن يكون قد استخدم بغرض الترويج لفكر معين.

يقول الإعجازيون أن "الإعجاز العلمي" ما هو إلا جزئ من "منظومة الإعجاز الشاملة". فهناك "الإعجاز العددي"، كتطابق عدد المرات التي ذكرت فيها كلمة دنيا مع عدد مرات ذكر كلمة آخرة، وهناك "الإعجاز البلاغي"، وهو الدقة الكاملة في استعمال كلمة ما في القرآن الكريم بحيث لا يمكن لأي كلمة أخرى أن تعطي نفس المعنى... وهذا مردود على الإعجازيين؛ فبعد أن تمت ترجمة القرآن الكريم للغاة أخرى، فقدت النسخ

المترجمة "إعجازها اللفظي و البلاغي" المتمثل في التعبير الأصلي وفي اللغة العربية. أما الإعجاز العددي، المتمثل في ذكر كلمتين متناقضين نفس عدد المرات، فهو سهل علينا نحن معشر البشر.

قال تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}.[فصلت:44]. [28]

الإيمان يكون بالنص الظاهر وليس بالباطن، بالرسالة الواضحة للقرآن الكريم وليس باستخراج "الإعجاز" من بين السطور. فالله تعالى أراد ايصال رسالته لكل الناس وليس للفلاسفة والعلماء فقط. وإن لم يكن الإنسان يفهم اللغة العربية فالترجمة تفي بالغرض، ولو كان الإيمان ب"الإعجاز" لكان سهلا على الله تنزيل القرآن بكل لغاة الأرض ولأعجز فطاحلتهم.

"... فالمعتقد هو إيمان ناشئ عن مصدر لا شعوري يكره الإنسان على تصديق فكر أو رأي أو تأويل أو مذهب جزافا، وسوف نرى أن العقل غريب عن تكوين المعتقد، ولا يأخذ العقل في تبرير المعتقد إلا بعد أن يتم تكوينه." ويضيف لوبون: "...قد يمكن إدراك السبب في انتشار الدين المسيحي بين من يعدهم بسعادة أبدية من عبدان ومحرومين طيب العيش، ولكن ما هي القوى الخفية التي كانت تحمل الشريف الروماني على التجرد من أمواله، وتعريض نفسه للعذاب في سبيل دين جديد ترفضه العادة، و يأباه العقل، وتحرمه القوانين؟" [29] أي أن تكوين المعتقد لدى الإنسان لا يرتبط بالعقل والمنطق بل هو خاضع لنواميس قاهرة، وببساطة؛ إرادة الله عز وجل.

قال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}.[القصص:56]. [30]

كخلاصة؛ يبدو جليا أنه لا جدوى تذكر من نظرية "الإعجاز العلمي". كذلك أدعو الإعجازيين لوضع تعريفين منفصلين للمفهوم، بيد أنه ينتشر –أو يُنشر– بين المسلمين وغير المسلمين.

الإطار المرجعي المرتكز عليه

لا تنحصر المآخذات على هذا "العلم" في عدم جدواه، بل عدم استناده على إطار مرجعي واضح (frame of reference).

يعرف "الإعجاز العلمي" كالتالي: "الإعجاز العلمي: بمعنى السبق بالإشارة إلى عدد من حقائق الوجود بدقة علمية مطلقة شملت الإنسان، والحيوان، والنبات، والكون ومكوناته، وظواهره."[31] وهذا تعريف آخر متداول للمفهوم: "الإعجاز العلمي هو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول، وهذا مما يظهر صدق الرسول محمد فيما أخبر به عن ربه سبحانه."

من هذا التعريف نستنبط فكرتين أساسيتين هما عماد مفهوم "الإعجاز العلمي"؛ الأولى أن يثبت العلم التجريبي ما جاء في القرآن والسنة، والثانية إظهار صدق رسول الله فيما أخبر به عن ربه سبحانه. أي –وحسب التعريف– أن إثبات صدق رسول الله لا يكون إلا بإثبات صحة ما جاء في القرآن الكريم، وهذا لا يكون إلا إذا تطابق كتاب الله مع العلم التجريبي. أي أن –بالنسبة للإعجازيين– المراجع الأساسية المعتمدة بالتوالي وحسب الأهمية لإثبات صحة الدين هي العلم التجريبي أولا فالقرآن الكريم فرسول الله صلى الله عليه وسلم. من هذا كله نفهم أن الإطار المرجعي (frame of reference) بالنسبة للإعجازيين هو العلم.

يقول الإعجازيون –في نفس الوقت– أن العلم ما زال قاصرا عن الإحاطة بكل ما في كتاب الله وسنة نبيه، أي أن كل تطابق ينجح في تجاوز ضوابط الإستخراج فهو "إعجاز علمي"، وما تناقض أو لم يتطابق فنؤخره وننتظر حتى يستطيع العلم الوصول إلى الحقيقة. قال ذاكر نايك في أحد محاضراته: "80 في المائة مما ذكره القرآن عن العلم ثبت بأنه صحيح تماماً. وما تبقى، أي الـ 20 في المائة، لا يزال غامضاً، ليس صحيحاً أو خطأً....يقول منطقي إن الـ 20 في المائة المتبقية ستثبت صحتها إن شاء الله." "وإن توصل العلم الوضعي إلى بعض الحقائق، فإن هذه الحقائق لا يمكن لها أن تختلف عما جاء في القرآن الكريم من قبل. وما قد يختلف فيه العلم الوضعي الحديث عما جاء في بعض آيات القرآن الكريم، فإنما مرجعه سببان هما: أن هذه المفاهيم العلمية الحديثة تعتمد على أمور ظنية ولم تصل إلى الحقيقة الكاملة اليقينية التي أشار إليها القرآن الكريم، وإلى إساءة التفسير العلمي للآيات الكونية حتى بدت هذه الآيات في غير معانيها الحقيقية." . [32]

وهذا تناقض صارخ، لأنهم يعتمدون العلم كإطار مرجعي عندما يعرفون مفهوم "الإعجاز" كما ذكرت. فهل الغاية من الإعجاز هي إثبات صحة الدين بالعلم والمنطق أم إثبات صحة العلم والمنطق بالدين؟ هذا الاستهتار بأساسيات البحث ما هو إلا دليل آخر على أن نظرية "الإعجاز العلمي" تدخل في دائرة الثقافة السائدة (Popular Culture), أي أن المستهلك لها هو العامة.

المشاكل التي سببها الإعجازيون للمسلمين عديدة؛ جعلوا أحداث السن يشكون في دينهم بعد أن انبهروا بانتصارات "الإعجاز"، كما وقدموا فرصا وثغرات لا تعوض لمن يتربصون بالإسلام. كل هذه المشاكل سببها عدم وضوح الإطار المرجعي المتبع من طرفهم، بل هو هجين بين الدين والعلم،

يغيرونه حسب ما يناسب مواقفهم. فعلى الإعجازيين، سوءا كانوا صناعا أو مجرد مستهلكين من العامة، الارتكاز على إطار مرجعي موحد، وسأقدم مثالا يساعدهم على هذا.

لندرس الحديث الشريف التالي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلاَةَ الصُّبْحِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ؛ فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ فَقَالَ: فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، –وَمَا هُمَا ثَمَّ– وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ فَطَلَبَ حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ: هَذَا اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي؟ فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ قَالَ: فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، –وَمَا هُمَا ثَمَّ.».[33]

وقبل التعليق على الحديث سنتعرف على رأي العلم في هذا الخصوص؛ يقول إيريك جارنس، جامعة دورما نورث كارولاينا، أن "معظم الحيوانات لا تستطيع تعلم الأصوات، إنها فقط تصدر الأصوات التي ولدت معها." وتقول انجلينا ستوغر هوروات، جامعة فيينا، متحدثة عن الببغاء، أن الحيوان يستطيع نطق كلمة إجلس لأنه تعلم كيف يقلدها، لكنه لا يستطيع استعمالها بشكل مجد وتوقع ردة فعل كما يفعل البشر، "إنه لا يتوقع من مالكه أن يجلس عندما يصدر كلمة اجلس".

قال رسول الله أن الذئب تكلم مع الرجل، وقال العلم –الإطار المرجعي للإعجازيين– أن الذئب ليس من قدراته الكلام إطلاقا. وسؤالي للإعجازيين: هل يتكلم الذئب أم لا يتكلم؟ وإن قالوا أن الذئب لا يتكلم لكنه يومها تكلم بصورة استثنائية كمعجزة، فهذا مردود عليه؛ لأنه إن كنتم تؤمنون بالمعجزات فما الحاجة "للإعجاز العلمي" أساسا؟

"فهذه بقرة أنطقها الله في الدنيا تدافع عن نفسها بأنها لا تؤذى ولا تستعمل في غير ما خلقت له."[34] وهذا يعني أن هذه البقرة ليست استثناء في الإدراك، أي أن كل البقر تعلم لما خلقت.

قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا }.[35]

وتسبيح البقر –كسائر المخلوقات– دليل على إدراكها. "ففي هذا النص الصريح نطق البقرة ونطق الذئب بكلام معقول. من خصائص العقلاء على غير العادة، مما استعجب له الناس وسبحوا إعظاما لما سمعوا، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع هذا الاستعجاب بإعلان إيمانه وتصديقه، ويضم معه أبا بكر وعمر وإن كانا غائبين عن المجلس لعلمه منهما أنهما لا ينكران ما ثبت بالسند الصحيح لمجرد استبعاده عقلا."[36]

أكد رسول الله أن البقر مدرك لما خلق، وقال العلم –الإطار المرجعي للإعجازيين– أن الحيوانات لا تستطيع إدراك ما يدركه البشر. وسؤالي للإعجازيين: هل يدرك البقر الغاية من خلقه أم لا؟

يذكرني نهج الإعجازيين بما فعله القرآنيون، وهنا أعني القرآنيين الذين نشطوا في الهند مع بداية القرن العشرين والذين كانوا قد تأثروا بحركة أحمد خان تحديدا؛ وكان هؤلاء قد دعوا إلى إلغاء السنة بالكلية وعدم النظر لها في التشريع. وتعددت الأسباب التي أدت بهم لهذا الضلال البعيد، إلا أنني سأكتفي بما يفيدنا في هذا البحث؛ حيث أن من الأسباب التي سببت نشأة الحركة ".اغترار بعض الفئات الإسلامية بالنظريات العلمية والأوروبية المنتشرة خلال النصف الأول من القرن العشرين، وتفسير الحقائق الإسلامية على ضوءها، والتوفيق بينها وبين الإسلام."[37]

فهل سيأتي يوم يقوم فيه الإعجازيون بإلغاء كل ما لا يمكن تصديقه في زمننا هذا من الكتاب والسنة للتوفيق بين العلم والدين؟ أم أنهم سيعلنون التوبة بنسف هذه النظرية؟ ولا أرى لهم حلا ثالثا.

العلم والمنطق في مواجهة الدين

سبق لي أن ذكرت أن نظرية "الإعجاز العلمي" جائت بنتيجة معاكسة لما يروج له؛ اي أنها جعلت المسلمين يشكون في عقيدتهم وفتحت أبواب واسعة لمن يريد استهداف الإسلام وإظهاره كدين قد عفى عنه الزمن. ولتتضح هذه النقطة جليا للقارئ الكريم، سأقدم بعض الأمثلة:

أولا، من الناحية العلمية:

المثال الأول:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلاَ يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ}. [يس:38]. »[38]

إن قارنا بين ما قاله رسول الله لأبي ذر وبين ما جاء به العلم الحديث سنجد اختلافا كبيرا. فقد رزع العلم في وعينا وخيالنا مذ كنا صغارا أن الشمس ثابتة والأرض هي من تدور حولها –الفصول الأربعة– وتدور كذلك حول نفسها –الليل والنهار، وأنا هنا لا ألمح لنظرية المؤامرة.

إذن، وحسب العلم، فالشمس تغيب عن قوم لتظهر لقوم آخرين وليس للذهاب للسجود. فكيف يمكن الخروج من هذه المعضلة بعقل سليم؟ والعقل السليم لا يرتبط فقط بالجسم السليم، بل أيضا بإطار مرجعي واضح يحدد ما يعتقده الإنسان.

قال تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا}. [39]

هذا تناقض آخر بين العلم والدين، إلا أن الاعجازيين سرعان ما قالوا أن المعنى في الآية الكريمة ليس أن الشمس تغرب بالفعل في عين حمئة، بل المقصود هو كما رآها ذو القرنين. فهل حديث أبي ذر أيضا لا يشرح كيفية غروب الشمس بل كيف تهيأ الأمر لمحمد؟

كلما تقدم الإنسان علميا، فلسفيا أو في أي مجال إلا وظهرت فرق تنشق عن الأمة لتساير التغيير. وكما ظهر الأشاعرة الذين تأثروا بعلم الكلام والفلسفة ووصفوا الصحابة بالعوام و الجهال لعدم خوضهم في التكلم، كذلك ظهر الإعجازيون. قد أعلن الأشاعرة –ليس كلهم– ثوبتهم، فكم سيستمر الإعجازيون قبل أن يفعلوا الشيئ نفسه؟

يقول ابن الجوزي –متحدثا عن ابن عقيل الحنبلي بعد أن تاب الحنبلي عن علم الكلام: "جمع أبو الوفاء ابن عقيل أصحابه وقال لهم: أنا أقطع أن الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض، فإن رضيتم أن تكونوا مثلهم فكونوا، وإن رأيتم طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيتم، وقد أفضى الكلام بأهله إلى الشكوك وكثير منهم إلى الإلحاد." [40]

وحتى لا يقول الإعجازيون أن علم الكلام و "الإعجاز العلمي" أمران مختلفان، لأن الأول من الفلسفة أما الثاني فمن العلم التجريبي، أقول أن كل من دعوا إلى الإهتمام ب"الإعجاز" بأنواعه كانوا من المتكلمين؛ من الخطابي الى الباقلاني مرورا بالرازي فالكواكبي، الذي اتهم في كتابه (طبائع الاستبداد) الأولين بالتقصير فيما يخص تناول موضوع "الإعجاز"، وبالجبن والخوف من القتل. فكل من لم يفهم سبب ترك الأولين للشبهات اتهمهم إما بالجهل أو الجبن والتقصير.

وفقط للتوضيح؛ أنا لا أدعوا للتشكيك في العلم، بل لعدم التفسير والتأويل الذي ما أنزل الله به من سلطان.

قال تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ}. [41]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَإِذَا بَلَغَه فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ، وَلْيَنْتَهِ». رواه البخاري ومسلم. [42]

فإن قال الله تعالى أن الشمس تغرب في عين حمئة فإنها تغرب في عين حمئة وكفى. أما عن الطريقة والكيفية فهذا مما لا جدوى منه ولا فيه.

المثال الثاني:

اليكم التجربة التالية: "هناك قصة عجيبة عندما قام باحث من دولة عربية عرف بإنتاجه العلمي والعملي على المستويين العربي والدولي. . . فقد أجرى هذا الباحث في حديقة كلية العلوم تجربة عام (1997) فنصب اربعة بيوت بلاستيكية موحدة في حجمها، وملأها بكميات متساوية من التراب، وزرع فيها قمحا من نوع معين وغرس فيها بذور الحنطة على عمق واحد، وتم تسميدها جميعا بكميات متساوية من سماد معين، وسقيت جميعا بذات العدد من السقيا، وبكميات متماثلة من الماء. . . فهانك نبات عدب أمام نبات آخر، ونبات تلقى التعديب مباشرة، ونبات قرئت أمامه آيات من القرآن الكريم، وأما البيت الرابع فترك ينمو نموا طبيعيا. . . كانت النتيجة التي عرضها في مؤتمر علمي أن نبات البيت الذي استمع للقرآن الكريم ازداد طوله اربعة وأربعين بالمئة على طول النبات الضابط في البيت الرابع، وازدادت غلته مئة وأربعين بالمئة على غلة البيت الرابع الضابط، أما البيتان الثاني والثالث اللذان تحملا التعذيب ورؤيته فقد تدنى طول نباتهما خمسة وثلاثين بالمئة، وهبط إنتاجه إلى تمانين بالمئة، وهذا تفسير علمي للبركة، فعندما يزرع المؤمن يقرأ القرآن بنفس طيبة، ويذكر الله دائما أمام النبات يزيد في الغلة." [43]

وأنا حقيقة وقفت عاجزا أمام هذه التجربة، ليس لأنني تأثرت ب "الإعجاز" فيها بل لما يكتنفها من عيوب. وقبل التعليق على هذه التجربة إليكم تجربة مماثلة، إلا أنه قد تم استبدال القرآن الكريم بأنواع مختلفة من الموسيقا؛

"أما تأثير الصوت والموسيقى على النبات فهو معروف اليوم، ومن التجارب المذكورة في هذا الصدد أن إحدى الباحثات (دوروثي ريتاراك) من كاليفورنيا قامت بعدة تجارب على الموضوع منها أنها أخضعت نباتات موضوعة في جو مراقب علميا لتسجيلات موسيقية مختلفة الأنواع والإيقاع ابتداء بموسيقى الروك وانتهاء بموسيقى الباروك فثبت أن النباتات استمعت إلى موسيقى (باخ) وألحان موسيقى رافي شلكمار الهندية فأصبحت جذورها قوية كما أنها نمت في اتجاه مصدر الصوت حتى طوقت مضخم الصوت من خلال زاوية بلغت في بعضها 6 درجة أما النباتات التي خضعت لموسيقى الروك فقد ذبلت وماتت، وخلال السنوات التي أجريت فيها هذه التجارب في مراكز الأبحاث في الجامعات تبين للباحثين أن النباتات التي توضع في جو الموسيقى الكلاسيكية أو الهندية تنمو بغزارة وبسرعة وأكثر قوة من النباتات التي تعيش في الصمت أو وسط جو من الموسيقى المختلفة." [44]

هذا وبعد الانبهار بالتجربة الأولى، تأتي الثانية ومعها الشك الذي يتجاوز هذا الانبهار ليلامس العقيدة. فمن خلال التجربتين نستنتج ان التأثير في النبات و"راحته النفسية" لا يخص القرآن الكريم وحده بل للموسيقا نفس التأثير، فهل هذا إعجاز موسيقي؟! كما أن الفلاحين الفرنسيين لا يقرؤون القرآن عندما يزرعون ويغرسون ومع ذلك فرنسا العلمانية لها فلاحة أقوى من فلاحة الدول العربية مجتمعة. وقد يستنتج بعض المهووسين بعداوة الأنظمة أن الفلاحة في الدول العربية تعاني لأن النباتات تشاهد ما يتعرض له الشعب من ظلم وبالتالي تتأثر صحتها النفسية ولا تنمو! وهذا مثال جيد لتدعيم وجهة نظري عندما قلت أن الإعجاز سلعة للاستهلاك الداخلي.

ثانيا، من الناحية المنطقية:

سبق لذاكر نايك أن حاول إثبات وجود الجنة والنار بالمنطق فقال في أحد محاضراته: "لا يستطيع عالم أن يقول اليوم إنه يستطيع أن يثبت عدم وجود جهنم على نحو علمي. ولا يستطيع أن يثبت عدم وجود الجنة على نحو علمي. يستطيع أن يقول إنه لا يعرف. لعلها موجودة ولعلها غير موجودة. الأمر غامض." وقال نايك كذلك في إحدى محاضراته أيضاً أن الدليل على وجود الجنة والنار منطقيا هو الحاجة لتطبيق العدالة على المجرمين الذين لا يمكن للقانون الإقتصاص منهم في هذه الحياة. وقال إن العديد من زعماء المافيا والعصابات يموتون ميتة مريحة بعد أن أمضوا حياتهم في السرقة دون أن يعاقبهم القانون، فكيف يمكن أن نثبت لمن لا يقدر عليه القانون ومن لا يكترث بالناس أن السرقة شيئ سيئ لهم؟ لذا، وحسب قوله، فلا يمكن أن يثبت أحد أن السرقة شيء سيئ إلا ضمن مفهوم الجنة والنار.

هذا كلام أخآذ ويسلب عقول وقلوب الناس من العوام، وما يريد نايك قوله هو أن اعتبار الإنسانية جمعاء بكل دياناتها وأنظمتها الإعتقادية أن السرقة شيئ سيئ هو دليل منطقي على وجود العقاب الإلهي بعد الموت، وليس لأن الناس يخافون من السجن أو لأن السرقة تؤذي الآخرين. وهنا أكرر سؤالي: هل يفترض بالإعجاز دعوة من هم غير مسلمين للإسلام أم إقناع المسلمين أنفسهم أنهم على صواب؟

نظرية نايك هذه وغيرها قد تطبق في أي دين أو نظام اعتقادي آخر. فإن وجه هذا الكلام لشخص يعبد الشمس مثلا، فسيقول أن كلام نايك صحيح، وستعذب الشمس زعيم المافيا الكبير هذا بعد موته. أي أن منطق نايك لن يجعل أحدا يؤمن بالجنة والنار في الدين الإسلامي تحديدا، بل سيسقط هذه النظرية على أي دين آخر. وكذلك إن كان المستهدف بالدعوة لا يدين بشيئ فإن جدوى هذه النظرية تنتفي، فإن صدق الملحدون والادينيون والأدريون وغيرهم هذه النظرية فإن هذا لن يجعلهم يختارون الإسلام تحديدا كدين لهم. لأن، كما قلت، هذه النظرية قابلة للتطبيق في أي نظام اعتقادي. إذن فهذه النظرية لا يمكن أن تكون الجدوى منها الدعوة للإسلام تحديدا، فهل هي لإقناع المسلمين أنفسهم بوجود الجنة والنار؟

قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}. [45]

إذن فالإيمان بالجنة والنار أساسي عند كل مسلم ولا حاجة لإقناعهم بوجودها. فما جدوى هذه النظرية وغيرها إذن؟

أعود وأكرر أن الإيمان يترسخ بالاطمئنان وليس بالإقتناع. يحكى أنه كان هناك ثلاثة إخوة مسلمون لديهم مصحف واحد بالعربية، يأخذه واحد منهم كل ليلة، وكان ثلاثتهم لا يعرفون اللغة العربية. بعد وفاة أحدهم ذهب حفيده لجدته وسألها عن جده، فقالت الجدة أن جده عندما يكون المصحف في بيته كان يفتحه ويمرر اصبعه على كل كلمة في السورة التي يقرأها ويقول: كلام ربي كلام عظيم كلام ربي كلام عظيم...

إن افترضنا أن شخصا ما صدق نظرية ذاكر نايك واقتنع بوجود الجنة والنار، واقتنع بوجود الخالق، واختار الإسلام دينا؛ فلا شك أن اسلوب المنطق الذي آمن عن طريقه سيلازم هذا الشخص خلال بحثه ودراسته لدينه الجديد، وسيحاول تقييم كل شيئ في الإسلام بالعلم والمنطق. لنحاول تخيل ما يمكن أن يدور في خلد هذا الشخص وأين سيؤدي به المنطق:

قال تعالى: {يَا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً}. [46]

الإيمان بالاطمئنان: كلام ربي كلام عظيم.

الإيمان بالاقتناع: كيف يمكن، منطقيا، أن يحوي كتاب الله الذي يفترض به هداية البشرية جمعاء وعلى مر العصور مثل هذه الآية؟ ما الذي نستفيده نحن منها ومن مثيلاتها الآن؟

قال تعالى:{وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ}. [47]

الإيمان بالاطمئنان: كلام ربي كلام عظيم.

الإيمان بالاقتناع: كيف أمكن لنوح بناء سفينة تسع زوجين من مخلوقات الأرض بطعامهم وشرابهم لمدة سنة كاملة؟ كيف استطاع نوح جمع هذه الحيوانات كلها؟ وإن كانت كلمة معجزة هي الجواب على هذه الأسئلة ففيما الطوفان إذن؟ أما كان أسهل لو أهلكهم الله بمعجزة، كأن يقول لهم

موتوا كما فعل ببني إسرائيل؟ وإن كان لا بد من الطوفان كعقاب لهؤلاء القوم ففيما السفينة إذن؟ أما كان أسهل أن ينجي الله نوحا وقومه بمعجزة؟ ولو رست السفينة في مناخ حار بعد الطوفان لانقرضت الحيوانات التي تعيش في مناخ بارد والعكس صحيح، فكيف بنا لا زلنا نرى الجمل والدب القطبي؟ وإن كانت الحيوانات قد نجت بمعجزة ففيما جمعها إذن؟ أما كان أسهل لو تركت مكانها وتنجوا بإذن الله... ونستغفر الله العظيم.

شكر

أود أن أشكر الله تعالى على ما فضلني به عن كثير من عباده وعلى ما ابتلاني به من بلاء. ورب ضارة نافعة، والحمد لله على ما أعطى والحمد لله على ما أخذ. كما وأود أن أشكر كل من ساهم في إثراء فكري وقدم نفسه، ولو عن غير قصد، كمشروع للتفكر. ومن ينكر جميل الشمس والقمر ينكر جميل البشر، ومن ينكر جميل البشر فالله لا حمد ولا شكر.

لم تكن الغاية من هذا العمل الرمي بالمهتمين "بالإعجاز العلمي" وكل اجتهاداتهم في سلة المتناقضات. بل الغاية هي طرح بعض التساؤلات التي يفترض بمن يؤمنون بهذا "العلم"، إن كانوا صناعا أو مستهلكين، الإجابة عنها.

الهوامش:

[1] سورة المائدة، الآية: 3

[2] سورة ابراهيم، الآية: 34

[3] تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، شوقي ضيف

[4] سورة الإسراء، الآية 88

[5] البخلاء، الجاحظ

[6] تبيان إعجاز القرآن، الخطابي

[7] إعجاز القرآن، الباقلاني

[8] A Short History of Myth، كارين أرمسترونغ

[9] مدخل إلى دراسة تاريخ الأديان، مسعود حايفي

[10] تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، شوقي ضيف

[11] نقد نقد العقل العربي، إشكاليات العقل العربي، جورج طرابيشي

[12] الدين، محمد عبد الله دراز،

[13] The epic of Gilgamesh، نانسي ساندرز

[14] The epic of Gilgamesh، نانسي ساندرز

[15] سورة نوح، الآية: 23

[16] سورة البقرة، الآية: 213

[17] سورة الحجر

[18] The History of the Devil، بول كاروس

[19] مدخل إلى دراسة تاريخ الأديان، مسعود حايفي

[20] الموسوعة الميسرة في الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة، شحاته صقر

[21] مراجعات في الثقافة العربية، عبد السلام المسدي

[22] دراسة الجدوى الاقتصادية للمشاريع، رائد محمد عبد ربه

[23] الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه، عبد الله بن عبد العزيز المصلح

[24] سورة الحشر، الآية 10

[25] الجمان في مختصر أخبار الزمان، لأبي عبد الله الشطيبي

[26] Foundations of the Frankfurt School of Social Research، جوديث ماركوس

[27] الرأي العام في الواقع الافتراضي وقوة التعبئة الافتراضية، محمد مصطفى رفعت

[28] سورة فصلت، الآية 44

[29] الآراء والمعتقدات، غوستاف لوبون

[30] سورة القصص، الآية 56

[31] مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، زغلول النجار

[32] . من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، مع آيات الله في السماء والأرض في ضوء الدراسات الجغرافية الفلكية والطبيعية، حسن أبو العينين

[33] رواه البخاري ومسلم

[34] الكبائر، الذهبي

[35] سورة الإسراء، الآية 44

[36] أضواء البيان، الشنقيطي

[37] القرآنيون، خادم بخش

[38] رواه البخاري و مسلم

[39] سورة الكهف، الآية 86

[40] تلبيس إبليس، ابن الجوزي

[41] سورة الأنعام، الآية 113

[42] رواه البخاري و مسلم

[43] الإعجاز العلمي في النبات والماء في ضوء القرآن والسنة ، أسامة نعيم

[44] الموسيقى والعلاج الطبي، سامي أحمد الموصلي

[45] سورة آل عمران، الآية 185

[46] سورة الأحزاب، الآية 53

[47] سورة هود، الآية 42